

الملاح التراثية في أعمال الفنانة تمام الأكل

تعريف التراث:

يعتبر التراث الشعبي (الفلكلور) أو علم المتوارثات الشعبية لأي شعب أو أمة، هو جملة أعمال سلوكية ومشاعر وأحاسيس وتعاليم وحكم شعبية وممارسات وتقاليد وأعراف وشعائر، مارسها الآباء وورثها الأبناء والأحفاد.

ومفردات التراث الشعبي تشمل كل مظاهر البيئة الشعبية بأوسع معانيها ومدلولاتها وموجوداتها العيانية المادية والشفاهية المنطوقة والروحية والطقوس الممارسة بحسب التقاليد الخاصة سواء الدينية أو الشعبية أو الممزوجة من كليهما. وخلاصة القول إن التراث الشعبي هو كل شريط الحياة الكاملة من الولادة حتى الموت، وهو بمعنى أشمل: كل ما يمارس من طقوس وشعائر وعادات وتقاليد وأعراف وترانيم وأهازيج ومراثي ... الخ، وهو كل الحرف وما يدخل فيها من عدد وأدوات، لقد شكل التراث الشعبي بأشكاله الموروثة والممارسة هوية لأي شعب، إنه الجذور الضاربة في الأعماق لحضارة أي إنسان، وعند المرور على تاريخ الشعب الفلسطيني من أيام الكنعانيين مروراً بالنكبة والنكسة والانتفاضة الأولى والثانية وحتى يومنا هذا، حتى نرى ما أصاب هذا الشعب الفلسطيني من محن قاسية وتهجير مبرمج، ومحاولات مستميتة من قبل العدو الإسرائيلي لقلعه من جذوره، إلا أن كل تلك المحن لم تثن أو تقوض قوة ومقدرة هذا الشعب الصامد فوق أرضه، أو حتى الموجود في المنافي على الإبقاء على الخصائص والسمات الاجتماعية والتراث الموروث عن الآباء والأجداد في الحفاظ على مقوماته وهويته، بالرغم من كل الممارسات اللاإنسانية التي مورست بحق هذا الشعب من تشريد وإبادة جماعية وسرقة لموروثه الحضاري، لذلك كان لابد من ترسيخ صموده وتعزيز شعوره الوطني بالحفاظ على تراثه وهويته الفلسطينية.

ففي الوقت أن المواعظ والخطب والبحوث والدراسات والفنون الأكاديمية تقتصر على نخبة معينة ومحدودة من أبناء الشعب، نجد أن التراث الشعبي يشمل مساحة واسعة من أبناء هذا الشعب، قد تتقابل أو قد تختلف فيما بينها إذا ما اصطدمت بمفاهيم أخرى وتزيد من فلسفتها مما يزيد الأمور تعقيداً.

وقبل الخوض في الملاح التراثية في أعمال الفنانة تمام الأكل سأقدم بطاقة تعريفية لها.

تمام عارف الأكل:

الفنانة التشكيلية الفلسطينية ابنة يافا المولودة فيها عام 1935م شردتها النكبة مع أهلها إلى بيروت عام 1948م، منحتها كلية المقاصد في بيروت بعثة لدراسة الفنون في المعهد العالي للفنون الجميلة بالقاهرة عام 1953م، حصلت على شهادة الفنون الجميلة وشهادة إجازة تدريس الفن من المعهد عام 1957 في القاهرة، شاركت في العام 1954 بمعرض فني مع الفنان إسماعيل شموط والذي أصبح فيما بعد زوجها ورفيق دربها الفني، وافتتح هذا المعرض الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، شاركت زوجها إسماعيل شموط في كافة المعارض التي أقيمت لأعمالهما في معظم الدول العربية، وفي عدد كبير من دول العالم. وشاركت في عشرات المعارض المشتركة العربية والدولية والأجنبية، لها أعمال مقتناه في عدد من متاحف الدول العربية والأجنبية ومن قبل مقتني ومحبي أعماله، حاصلة على جوائز متنوعة عديدة. لقد استطاعت تمام أن تصور بإبداع ريشتها وعلى مدى أكثر من خمسين عاماً تراث الشعب الفلسطيني وواقع معاناته، إن ما أعطته تمام للتراث الشعبي الفلسطيني ولل قضية والمأساة الفلسطينية، ومعها طبعاً إسماعيل (لأنه يصعب الحديث عن تمام دون الحديث عن إسماعيل والعكس صحيح)، عبر ريشة الفنان التشكيلي تراث نعتز به، وهو موروث فني تراثي حضاري، روي ويروي وسيروي لأجيال المستقبل، حكاية فلسطين وتراث شعبه ونضاله من أجل نيل حريته.

تعتبر تمام الأكحل أول فنانة فلسطينية تقيم معرضاً شخصياً في القاهرة عام 1954، وهي أول فنانة فلسطينية تتخرج من أكاديميات الفنون التشكيلية، وهي بلا مبالغة تعد الرائدة الحقيقية للفن الفلسطيني المعاصر وقد كرمت في الأسبوع التشكيلي العربي كرائدة من رواد الفن الفلسطيني، وهي الفنانة التي استمرت في الإنتاج لأكثر من خمسين عام أطال الله في عمرها، عبر مشاركتها في عشرات المعارض الجماعية الفلسطينية وإقامتها لأكثر من ثلاثين معرضاً شخصياً في المدن العربية والأجنبية نذكر منها: القاهرة- القدس - عمان- دمشق - بيروت - الكويت - الجزائر - صوفيا - بلغراد - بكين - لندن - طوكيو... الخ.

وكما قلنا سابقاً لا يمكن الحديث عن تمام دون الحديث عن إسماعيل شموط، فإذا كان إسماعيل شموط يمثل البداية التسجيلية للفن الفلسطيني في بداية الخمسينات فإن أعمال تمام تمثل التجربة الرائدة. فهي أول فنانة تتجاوز في إبداعاتها الصيغ التسجيلية في تعبيرها عن القضية الفلسطينية، فأدخلت الفن في مرحلة جديدة ومتطورة، كيف لا وهي الفنانة خريجة المدارس الفنية الأكاديمية المعاصرة وما فيها من تجريد مطلق، لكن الهم الفلسطيني في داخلها كان أكبر من تلك المدارس، استطاعت أن تمسك زمام المبادرة في تجربة البحث عن الهوية والذات، استطاعت تمام أن تلتزم بأسمى الأهداف، وهو ما يسمو

بالإنسان من خلال وعيها وتمسكها بالتاريخ والحضارة والتراث معبرة عن القضية والتراث الفلسطيني من خلال معاشتها للأحداث.

وفي قراءة متأنية لأعمال تمام التي أنجزتها منذ الخمسينات تكشف عن فنانة متمكنة من أدواتها التعبيرية، وتتمتع بخبرة أكاديمية واسعة، تمثل الخلفية الفنية التي انطلقت منها في بحثها الفني الدؤوب وصياغتها للواقع الفلسطيني في تلك المرحلة، طرحت واقع النكبة والتشرد والخيام والزينكو والحنين إلى الوطن.... إلخ، كيف لا وهي التي عايشَت كل تلك المرحلة. إلا أنها استطاعت أن تطرحها بصيغ تسجيلية متطورة، تختلف عن تسجيلية الرواد من حيث تحررها النسبي من مظاهر الواقع الفيزيائي ومحاولاتها استكشاف أبعاد الواقعية المادية منها والنفسية، ثم كان التطور باتجاه واقعي جديد تحقق عبر تجارب تعبيرية ورمزية وتجريدية، أغنت واقعيتها وحررتها من المفاهيم الكلاسيكية والأطر التسجيلية الجاهزة.

لقد تناولت تمام في كثير من أعمالها جماليات الفولكلور الفلسطيني واستخدمته في التعبير عن العادات والتقاليد الشعبية الفلسطينية، والأزياء الفلسطينية، في سلسلة لوحات تمثل العرس الفلسطيني والحياة اليومية الفلسطينية بتفاصيلها، حيث اتخذت من التحليل الهندسي والعضوي وسيلة للنفاذ إلى عمق المأساة، واستطاعت في أعمالها اللاحقة أن تكشف مدى التطور التي مرت بها تجربتها على صعيد الأسلوب التعبيري والرؤية والمحتوى، منتقلة من الواقعية التسجيلية إلى شكل أقرب إلى الانطباعية من حيث الاهتمام باللون كأساس للتعبير من حيث الرؤية، وفي قدرتها على التعبير عن التراث الفلسطيني بجمالياتها.

فمن الواقعية التعبيرية مروراً بالتعبيرية التأثيرية ذات الأنفاس الانطباعية، استطاعت الفنانة أن تقدم أعمالاً فنية تدور في مساحة الحلم الفلسطيني والتراث، من فيض ذاكرتها المختزنة لذكرياتها المستعارة من طفولة رغيدة إلى حياة التشرد واللجوء. إلا أنها امتلكت الأدوات وقواعد الرسم الأخلاقي وأصول التلوين الحدائي في توافق ما بين فضاء المشهد وتوليفات السطوح، وما بين البنية الهندسية المعمارية للتكوين الفني مراعية لقواعد المنظور والنسب الذهبية القياسية لتوزيع الخطوط والملونات حسب المفردات التشكيلية، أما متن ألوانها فتجد جميع مكونات الدائرة اللونية الرئيسية في عناق مكشوف لصراحة الأحمر والأصفر والأزرق، ومتممات بصرية لتداعيات الأسود والأبيض، المتسلسلة ما بين تدرجات المشتقات لمكونات الأخضر والبرتقالي والبنفسجي والبنّي وغيرها، وهي ألوان ذات متوارثات تراثية استخدمت في ألوان التراث الفلسطيني، خصوصاً في المطرقات، إلا أن تمام استطاعت أن تستخدم هذه الألوان في تمايز بصري

متمكن، ما بين الضوء والعتمة، والمقابلة ما بين درجة لونية وأخرى، وهي مأخوذة بالملونات الزيتية، ومتأثرة بشكل أو بآخر بخبرات زوجها اللونية، في تطبيق وصفة لونية تحتوي على النص البصري، وتشكيل نمط من توحيد الروح والفكرة في تمايز تقني وخصوصية وتفرّد في أسلوبها التعبيري.

أما أعمالها في جداريات السيرة والمسيرة والتي شاركت زوجها بـ 8 جداريات بأبعاد كل منها 200 × 165 cm، والذي حفلت بعرضه جميع صالات العرض الرسمية والخاصة، العربية والأجنبية، والذي يدور السرد البصري لها في مساحة الحلم الفلسطيني، عبر المراحل التي مرت بها الفنانة، من سن طفولة في وطن سلب وهجر أهله بفعل الاحتلال الصهيوني، تستحضر يافا وما فيها من جماليات البحر والتلال والحقول والخيرات، إلى التبحر في أشعة الزوارق والتهجير، إلى مخيمات الزينكو والقهر في صبرا وشاتيلا وتل الزعتر ... إلخ. تتناول حجم المأساة والمعاناة اليومية والحزن المقيم في وجوه الشعب المهجر في توليفة بصرية ولونية، تحكمها القواعد والنسب الأكاديمية، كما نجد للمقاومة الفلسطينية في أطوارها المتعددة، فسحة واسعة محملة بجماليات السرد البصري، حول الفلسطيني المقاوم تصوغها في رمزية تعبيرية فائقة تربط بين مفهوم الثورة بالحضارة.

إن الأعمال التصويرية للفنانة تمام الأكل في معرض السيرة والمسيرة، هي حالة بصرية متفردة في العالمين العربي والدولي، وهي أشبه بملحمة فلسطينية معاصرة، تعتمد على التوثيق البصري والحسي لحكاية الشعب الفلسطيني المتسامي فوق جراحه، والذي ظل وفياً لأهدافه وأمتة، في المضي نحو التحرير، وتمسك بحق العودة والمقاومة المشروعة في استعادة الوطن المسروق، لقد استطاع الفنانان إسماعيل شموط وتمام الأكل، أن يضعا الفنان الفلسطيني في موقعه الصحيح في معركة المواجهة والبناء والديمومة والتواصل ما بين الفنان وشعبه، لقد استحققت الفنانة تمام الأكل عن جدارة لقب زيتونة الفن التشكيلي الفلسطيني، وستبقى علامة فارقة في مساحة التشكيل الغربي.

نتائج وتوصيات: إن ما يثبت هويتنا ويحافظ على كياننا كشعب فلسطيني مرهون بدوام التراث الشعبي المتوارث وبقائه حيا وممارسا، ان مايقع على عاتقنا جميعا من مسؤولية ملزمة هو التوجه الجدي إلى ما بقي من ذاكرة شعبنا والابقاء على سماته مادما نقر ونعترف بأن ميراث الشعوب هو دائما من القوى الفاعلة للحفاظ على وجودها وكيانه وشخصيتها المعنوية.

نحن اليوم أمام مهمتين خطيرتين، الأولى: هي العمل الجاد والدؤوب لجمع وتوثيق وحفظ تراثنا الشعبي. والمهمة الثانية والأخطر: الوقوف بقوة لصد لصد المتآمرين على هذا التراث والمخططات الهادفة على محو هذا التراث الإنساني وأحيانا كثيرة سرقة وتبنيه وادعاء ملكيته.

ان جمع وتوثيق الموروث الشعبي يجب أن يرافقه الاهتمام بالمعاني والدلائل، وما تحتويه من أحاسيس ومشاعر، أي دراسة وتحليل لهذا الموروث. وذلك بتعزيز الإحساس الصادق به، وتقوية الارتباط العضوي لأجيال المستقبل بالوطن والأرض، حتى وإن ولدت في أرض الغربة أو بلدان المهجر.

المراجع:

- (1) الفن التشكيلي الفلسطيني خلال نصف قرن . تحرير كمال بلاطة، الموسوعة الفلسطينية . القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، دراسات الحضارة، بيروت 1990.
- (2) محمد أسعد، الفن التشكيلي . الإتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين بالاشتراك مع دار الحوار، اللاذقية . سوريا 1985.
- (3) إسماعيل شموط، الفن التشكيلي في فلسطين، دار القبس، الكويت . 1989.
- (4) مقالات في بعض الصحف العربية وصفحات الإنترنت.

الفنانه تمام الأكل

هي أول فنانه فلسطينية تقيم معرضا شخصيا بعد عام النكبة، فقد شهدت القاهرة في العام 1954 معرضها الاول، أي بعد معرض الفنان اسماعيل شموط بسنوات معدودة ، وهي أول فنانه فلسطينية تتخرج من اكااديميات الفنون التشكيلية «خريجة كلية الفنون الجميلة في القاهرة العام 1957م». وهي بلا مبالغة الرائدة الحقيقية للفن الفلسطيني المعاصر «كرمت في الاسبوع التشكيلي العربي كرائدة من رواد الفن الفلسطيني» والفنانه التي ملكت استمرارية الانجاز عبر مشاركتها في عشرات المعارض الجماعية الفلسطينية واقامتها لأكثر من ثلاثين معرضا شخصيا في المدن العربية والأجنبية «القاهرة - القدس - عمان - دمشق - بيروت - الكويت - الجزائر - صوفيا - بلغراد - بكين - لندن .. الخ» ، وإذا كان «اسماعيل شموط» يمثل البداية التسجيلية للفن الفلسطيني «مطلع الخمسينات» فان تجربة «تمام الأكل» تعتبر التجربة الرائدة بالمعنى الدقيق للريادة، فهي أول تجربة فنية تتجاوز في ابداعاتها الصيغ التسجيلية في تعبيرها عن القضية الفلسطينية ، وهكذا فتحت الباب على مصراعيه للدخول في مرحلة جديدة متطورة. ساهمت في تكوينها، وكان لها دورها الفعال في التطور اللاحق في الستينات وفي التجارب التي جاءت بعدها، وحين نتحدث عن «تمام الأكل» فاننا نعني أيضا تجربة رائدة على صعيد استلهاام التراث الفلسطيني وبشكل خاص الجانب الفولكلوري، فأعمالها في هذا المجال تعتبر من البدايات الأولى التي مثلت فيما بعد اتجاها من الاتجاهات التراثية في الفن الفلسطيني المعاصر. فماذا عن هذه التجربة الرائدة؟ كيف تطورت في تعبيرها عن الحياة الفلسطينية ؟ وماذا عن خصوصياتها التشكيلية المستمدة من جماليات الفولكلور الفلسطيني الأصل؟

ان عودة الى أعمالها التي انجزتها في النصف الثاني من الخمسينات تكشف عن فنانه متمكنة من ادواتها التعبيرية وتتمتع بخبرة أكاديمية واسعة تمثل الخلفية المتماسكة التي انطلقت منها في بحثها الفني وصياغتها الواقع الفلسطيني صياغة ابداعية متميزة، وقد طرحت في تلك المرحلة «الخمسينات» و«كغيرها من الرواد واقع النكبة عبر موضوعات واقعية تمثل الحياة اليومية للتشرد» المأساة - الخيام - الغربة - الحنين الى الوطن - .. الخ» وبصيغة تسجيلية متطورة وتختلف عن تسجيلية الرواد من حيث تحررها «النسبي» من مظاهر الواقع الفيزيائي ومحاولاتها استشفاف ابعاده الواقعية «المادية» و«النفسية».. ثم كان التطور باتجاه واقعي جديد تحقق كإنجاز تشكيلي عبر وشائج تعبيرية ورمزية وتجريدية اغنت واقعيته وحررتها من المفاهيم الكلاسيكية والأطر التسجيلية الجاهزة. ولعل الحديث عن نماذج من لوحاتها تمثل مختلف المراحل التي مرت بها يعطينا صورة واضحة عن ابداعاتها ويجب عن التساؤل الذي طرحناه حول دورها كرائدة عاشت متغيرات القضية الفلسطينية من النكبة الى الثورة وتناولتها بالتعبير الفني. ففي لوحة تحت عنوان «مخيم مارالياس» تأخذ الواقعية شكلا أقرب الى الانطباعية من حيث الاهتمام باللون كأساس للتعبير ومن حيث الرؤية تسجيل مظاهر المخيم. ولعل مقارنة هذه اللوحة بسلسلة لوحات حول المخيم» المخيم رقم (1) - المخيم رقم (2) - المخيم رقم (3) ... الخ» أنجزتها في مرحلة لاحقة تكشف لنا مدى التطور الذي مرت به تجربتها على صعيد اسلوب التعبير والرؤية والمحتوى الفلسطيني ، ففي هذه المجموعة نراها وقد تحررت من الصيغ التسجيلية ، وذلك حين عالجت الموضوع «المخيم» من منظور مادي اتخذ من التحليل الهندسي والعضوي وسيلة للنفوذ الى عمق المأساة . وحين تناولت جماليات الفولكلور الفلسطيني استخدمته استخداما تعبيريا ، فصورت الى جانب الخيام النساء بالزي الشعبي الفلسطيني ، وتطورت في معالجتها المسألة الفولكلورية عبر مجموعة من الأعمال التي تمثل العادات والتقاليد الشعبية الفلسطينية كما في سلسلة لوحات تمثل العرس الشعبي الفلسطيني . ثم دخلت تفاصيل الحياة الفلسطينية كما في لوحة سأنتم. ففي هذه اللوحة انطلقت من اللقطة القريبة كما في السينما حيث عكست عبر وجه المرأة الفلسطينية «بورترية» المأساة والاصرار على التحدي والمواجهة،

وهذا ما نراه «اللقطة القريبة» في لوحة أخرى تحت عنوان «قالوا لي غدا سأعود» ، وإذا انتقلنا الى لوحاتها حول الثورة الفلسطينية مجموعة لوحات بعنوان «فدائيون» نجد الواقعية محققة بعلاقات تعبيرية واسطورية تعكس الفعل البطولي وتكشف عن الارتباط العميق بين المقاتل والارض، فقد دمجت الإنسان بالأرض التي يقاتل في سبيلها، وهكذا نتبين اهمية هذه التجربة الرائدة في تعبيرها المتطور عن الحياة الفلسطينية بمختلف جمالياتها واحداثها